نبض المكان في روح شخوصه في رواية "التبس الأمر على اللقلق" لأكرم مسلّم

أمين دراوشة

تمهيد

يدور المكان في ذهن الروائي أكرم مسلّم، ولا يجد له فكاكاً منه، وكأنه ملاصق له كأسمه. ففي كل رواياته يلعب المكان الدور الرئيسي فيها.

في روايته الثالثة في مشروعه الأدبي الثري، يتحفنا في رواية متوهجة، وتضيء الكثير من الأماكن والأحداث في حياة الفلسطيني البائسة.

تدور أحداث الرواية الأساسية في قرية فلسطينية، ويتعمق الكاتب في مكانين كان لهما التأثير الكبير على شخوص الرواية. وهما البيت القديم للجد، والتعميرة التي تحوي أسرار الجد التي تبقى الرواية تدور في فلكها، إذ يبحث الحفيد "اللقلق" الذي كان ملازما لجده، وأحب أفراد العائلة إلى قلبه طوال مسيرة الرواية على فكفكة الأسرار والألغاز التي زرعها جده في فكره.

ويظهر في الرواية مكان محوري في حياة الفلسطيني، إذ له دور كبير في خلخلة نمط حياته، وسحق أحلامه، والدوس على كل شيء إنساني فيه إنه الجسر، المعبر الحدودي الوحيد في الضفة الغربية الذي يؤدي إلى الأردن أي إلى العالم الخارجي.

وتتضمن الرواية العديد من الشخصيات المتنوعة وذات الخلفيات الثقافية المختلفة، فالجد خدم في جيش الانتداب البريطاني الذي أورثه الألم، وعندما تركه لم يعمل إلا بالتعميرة وحقول الزيتون، ورفض العمل عند أي كان. فقد كان يبحث عن منطقة آمنة بعد أن ورطه الجيش البريطاني في ذبح زميله، وهي الحادثة التي ستطارده مدى حياته. هذا الجد الذي سيحاول التكفير عن جريمته،

بإعطاء الثائر "أبو عماد" صديق اللقلق بارودته الانجليزية بعد سنوات طويلة ليقاوم بها الاحتلال الإسرائيلي، والذي كان يلتقيه بمواعيد محددة كان يعرفها بعدد الحصى، فكل حصى ساعة. وعندما أعطاه البارودة غطاها بمراود عدة من دالية عنب خصبة، وطالبه أن يرحل "وهو يحملها على نحو مكشوف، وكأنه جاء ليأخذها، ونبهه إلى أن الدالية من "عرق" خصب ونادر، ورجاه أن يزرع المراود، ولا يكتفي باستخدامها للتمويه، فالموسم موسم زراعة". (الرواية. ص١٠٩)، وبالفعل ينفذ أبو عماد الكلام ويزرعها لتنبت خمس داليات خضر، "كأنها تخرج من شقوق الحكاية، فيما تضرب جذورها عميقا في زمن الجدّ". (ص١١٠). أما الشخصية المحورية في الرواية "اللقلق" فيخبرنا الكاتب إن الجدة كانت تطلق الألقاب على الجميع، فأطلقت على حفيدها لقب اللقلق وهو صغير تشخيصا لبنيته الجسدية "الطول المفرط المتركز في الساقين النحيفين، التحدب الخفيف لكتفين يحملان عنقا طويلا يعلوه رأس صغير مدور، عليه أنف واضح الطول، الذراعان الطويلان والرفيعان". (ص١٦) وكان يبدو مثل : "مجموعة أعواد جمعت معا على نحو مرتجل". (ص٢٩) وهو طفل كان يرتدي بنطالين، أو أكثر، سرّا، لكي يخفى نحافة ساقيه. عمل اللقلق في الجامعة، إذ استطاع تميم جاره اليتيم والانتهازي والذي وصل بفهلوته إلى أعلى المناصب، واهمها عضويته في المجلس التشريعي، أن يأخذ للقلق مساحة صغيرة في الجامعة ليضع فيها ماكينة تصوير ليصور للطلاب والطالبات ما يحتاجونه، وكان اللقلق انهى دراسته في معهد المعلمين بسبب ضيق الحال. بينما استطاع تميم الحصول على الشهادة الجامعية. استغل اللقلق عمله في تثقيف ذاته فكان يصور للطلاب وبنفس الوقت يصور لنفسه نسخة مما يصورون، لذا توسعت ثقافته وتنوعت من الأدب والفلسفة والهندسة. وفي الجامعة سيحب طالبة هندسة نشيطة طلابيا، ولن يحالفه الحظ معها، وستتزوج زميلها، وعندما يحادثها هاتفيا بعد سنوات لن يكون على لسانها سوى الحجاب واهمية أن تكون المرأة محجبة.

كما تضمنت الرواية شخصية الأخر العدو ممثلة في الكابتن الإسرائيلي الذي يشعر بالزهو بالسيطرة على الفلسطينيين قبل أن تفاجىء الانتفاضة الجميع في عام ١٩٨٨م، وتقلب حياته رأسا على عقب.

ولا شك أن الآخر المحتل الاستعماري قد فرض حقائق كثيرة على الأرض سواء أكانت عسكرية أو اقتصادية أو اجتماعية، ولكن الشعب يواجه هذه الاجراءات القمعية في فضاء المكان. ومقاومة الناس نابعة أساسا من محاولة الاحتلال طمس هويتهم، وتشويه الأرض ومحاولته تهويدها بتغيير شكلها واسمائها. فالأمكنة ليس من السهل نزعها من قلوب أصحابها، ففيها ذكرياتهم وأحلامهم، وفيها بنوا تصوراتهم ورؤاهم عن الحياة. إن العمل الروائي سيكون ذا أهمية هامشية "إن لم يتحدّد مفهوم المكان ولم ترتسم أهمّ ركائزه خاصّة وهو من أدق ما عرفه الفكر البشري من المفاهيم وأكثرها تعقدا وتشعبّا وأدعاها إلى الاحتياط والاحتراز والتثبّت". (عبد الصّمد زايد. المكان في

الرواية العربيّة الصورة والدلالة. صفاقس: دار محمد علي للنشر, ط١. ٢٠٠٣م. ص١٥)

فالمكان الذي نعيش فيه يحتوي "كّل ما مارسناه مباشرة ورصدنا فيه بعضا من تصوّراتنا ومشاعرنا الذّاتيّة الشّخصيّة وتعلقنا به حبّا فيه لا في وظيفته وارتبط ارتباطا وثيقا ببعض تجاربنا العميقة أو بالجانب الحميم من ذواتنا". (عبد الصمد. مرجع سابق. ص ١٧) ومن أكثر من البيت الذي ولدنا ونشأنا فيه ومزارعنا وحقولنا وشوارعنا والقرية...يمثله.

وقد تتداخل وظائف المكان فيكون له أكثر من وظيفة كالشارع فهو يعبر عن الأجواء الاقتصادية وأيضا الفضاء الاجتماعي ففيه يلتقي الناس ويتجاذبون أطراف الحديث. ولا ريب إن المكان لا يتحدد بوظيفته، وحسب بل على الأغلب من الأحاسيس والمشاعر المتولدة منه.

أما القرية فهي رمز الطبيعة والحرية، وتهب الإنسان شعوراً بالتواصل والاستمرار. ويصورها الكاتب بطبيعتها الجميلة، ويتغلغل في نفوس الناس، فيظهر صفاء نفوسهم، وجهادهم في ظل حياة فرضت عليهم مليئة بالقسوة والعنف والجوع، يفتشون عن إحداث فرق ليعيشوا كما الناس الآخرين في العالم. وتناول مسلّم التناقضات بين فئات المجتمع، والصراع بين أفراده الأغنياء والفقراء، المقاومين والعملاء، وناقش جدلية الوطن والمنفى بطريقة غرز فيها الدبابيس في جسد القارىء، ليبقى على وعي تام بما يجري حواليه.

وفي روايته برع الكاتب في توظيف الحكايا الشعبية، لتخدم روايته وتكون أقرب إلى عقول وقلوب القراء.

إن أكبر مصيبة في القرن العشرين التي المت بالشعب الفلسطيني ولا زالت تنزف هي احتلال ارضه وطرده منها، وسجنه في بقعة جغرافية صغيرة لا يستطيع الحركة فيها إلا بإذن.

المكان في الرواية

تتنوع الأمكنة في الرواية، ويتم التركيز على بعض الأمكنة التي أثرت على حياة الشخوص. فما هي الأمكنة التي ذكرت في الرواية؟

التعميرة والوادي

التعميرة هي كل ما بقى للعجوز من ذكريات، فيها يحتفظ بأسراره القبيحة والجميلة، وهي مكان عمله الذي يعتاش منه. ويذهب إليها مرتين باليوم برفقة اللقلق. وفي الطريق إليها يسلكان طريقا ترابية بجهتها اليمين مقبرة، ومن جهة اليسار ثمة حقل زيتون كبير. والمقبرة تنشبك مع المدرسة المختلطة، ويمرا عبر ممر ضيق يمر من خلفها كي يصلا مدخل التعميرة.

التعميرة دون بوابة غير أن الخيط الوهمي الرابط بين فلقتي السور كان متينا. ولم يسبق لأحد أن دخل التعميرة المحروسة بهيبة الجد العسكري القديم. باستثناء أم تميم الجارة، وصديقة العمر لزوجة الجد، وهي امرأة سمينة لم يحالفها الحظ في الحياة، تزوجت وانجبت ابنها الوحيد، وترملت وهي صغيرة. لذا يحن عليها الجد.

في التعميرة التي تعود لأقرباء غادروا البلاد بلا عودة، توجد أربعة مخازن أهمها المخزن الرابع المزود بباب حديدي له مفتاح. وفيها التبن والشعير، ووعاء زجاجي سميك، في أسفله قطعة قماش حمراء تبدو مثل زنار أحمر عريض. وللوعاء عنق يعلوه غطاء محكم، يغلقه الجد بعد أن يرمي به الحصى التي يجمعها من تحت صخرة ضخمة، وهي الحصى التي ستبقى الرواية تدور حولها في محاولة للكشف عن سر العجوز العميق من قبل حفيده.

"يغادران البيت القديم الذي يتوسط البلدة القديمة مرتين في اليوم على الأقل، يمشيان عبر "شانزلزيه القرية!"، يصلان عين الماء الملاصقة لغرفة مولّد الكهرباء الضخم، ينعطفان يسارا ليسلكا طريقا ترابية تتوسط مقبرة من جهة اليمين، وحقل زيتون كبيرا من جهة اليسار، يلقيات التحية على الموتى..." (ص٨)

التعميرة التي احتوت ذكريات وأحلام وآلام الجد، والتي كان يحظر على الجميع دخولها، أصبحت بعد فترة من موت الجد مكانا يابسا، و "السلسة الحجرية متهاوية من أكثر من مكان، والمدخل الذي كان مغلقا بالهيبة وحدها صار مستباحا، وصار الطلاب يفرشون لطعامهم تحت ما تبقى من أشجار لوز متهالكة". (ص ٨٨) ورغم كل شيء ستبقى التعميرة نبع الألغاز والوجع والإخضرار، وستبقى الخمس داليات العنب الخضر في بيت المقاوم الفلسطيني رمزا لاستمرار النضال حتى الوصول إلى طريق الحرية، وبالرغم إن لوح الخشب السميك المطعّم بالحصى نخره سوس الزمن، إلا أن الدالية وحدها صامدة، وحاضرة بقوة، فوق المعرّش الصدىء..

في السنوات الأخيرة من عمر الجد، كانت التعميرة وحقل زيتون رومي يقسمه الوادي إلى قسمين متساويين كل حياته. وعلى الرغم من وعورة الحقل إلا أنه معطاء وسخي لذلك أحبه الجد أكثر من غيره. ومن شدة اهتمامه بالوادي لم يكن يضيع فرصة رؤية جريان الوادي في الشتاءات الغزيرة، وكان دائما ما يصطحب اللقلق معه، "يهدر الوادي على نحو مهيب، فيما تنساب نحوه جداول بالغة الصفاء من على سلاسل حجرية لامعة، متدرجة من ذروات الجبال لتصب فيه، ترسم لوحة مائية مذهلة". (ص٣٤)

ولأن الزمن يتغير فالوادي بعد وفاة الجد تغير أيضا، ورحل ألقه، وها هو عجوز يحدث اللقلق

قرب الوادي، عن الناس التي ترمي نفايتها في الوادي، وهذا ما كان ليحدث "لو كان الجدّ حيّا... وحذر اللقلق من خطر النزول إلى الوادي الآن، فبعد قليل ستبدأ الخنازير "الضالة"، خنازير من نوع عدواني، بالتجول". (ص١٠٢)

وسيعرف اللقلق معلومات حول الخنازير لم يكن يعرفها من قبل، فهي "طارئة على ريف فلسطين، ولم تكن موجودة أيام...جاءت الخنازير مع المستوطنات، ويقال إن نشرها مقصود، بغرض تخريب المزروعات، ومضايقة الناس". (ص١٠٣)

إلا إن الذكريات الجميلة لا تنفك تعود، حيث يتذكر اللقلق استراحات الغذاء مع الجد وقت حراثة حقل الوادي، والأرض المحروثة حمراء، تتنطنط العصافير فيها، و "يمنح نوار الزعرور المشهد خفّة لا تحتمل". (ص٣٧)

بعد ثلاثين سنة من اعتراف الجد لحفيده بقتل زميله في جيش الانتداب، يقف اللقلق بجانب الوادي محدقا فيه، ويتأمله، ويتساءل، كيف استطاع الوادي أن يلم بكل هذه الأشياء جنباً إلى جنب، ذكرى ثائر فلسطيني قتله جندي انكليزي، "وعربي تارك للجيش البريطاني يروي لحفيده عن قتل رفيق سلاحه في جيش الجندي الذي قتل الثائر العربي،...وعجوز تشتم شهرا فتغير المناخ! كم تشبه الذكريات حمولة الوادي: حجارة وزجاجات فارغة وأكياس نايلون وحشائش وحطب!". (ص ٣٩)

فالوادي الذي يجر الماء، يجر الذكريات أيضا وتجرّه.

يعتلي اللقلق صخرة الوادي الضخمة كطائر خرافي، وظل يحدّق في الوادي حتى "خرجت العتمة بكاملها من الأرض"، متذكرا مقولة أم تميم عن اكتمال الغروب.

البيت القديم

يتوسط البلدة القديمة، وإذا كان البيت يعني الراحة والأمان والاستقرار إلا إنه في حياة الجد في السنوات الأخيرة لم يكن بردا وسلاما عليه، فعلى سريره المعدني بالغ الترتيب، والمحصن كدشمة عسكرية، كانت تسكن الأحلام والكوابيس والصراع مع أشباح الماضي، وغالبا ما كانت الأحلام تتطور إلى عراك عنيف، ومع اشتداد العراك، تبدأ همهمات مضغوطة بالخروج، "وفجأة تندفع اليد المشدودة القبضة، بقوة شديدة، من عالم الحلم لتثقب هواء الصحو". (ص ٢١)

وفي خابيته كانت ترقد الأسرار قلقلة. بانتظار يد اللقلق ليفتح باب الخابية الخشبي، الخابية مقسّمة من الداخل برفوف خشبية بسيطة، يمد يده، ويلامس الأشياء القليلة الموجودة فيها: "بعض

كتب تراثية، ودينية، مفاتيح الطابق الثاني لبيت الأقارب المغتربين في أعلى التعميرة، وأوراق مهملة، وكتاب السحر". (ص٢٣) وعندما يحرك كتاب السحر تسقط منه بطاقتان عسكريتان إحداهما لجده والأخرى للقتيل، والذي كان الجد أخبر حفيده أنه جندي هندي، وكانت المفاجاة أنه من هذه البلاد، ويتساءل اللقلق، هل هناك من سيهتم بصورة بعد أكثر من سبعين سنة، هل يدفن الأسئلة بجانب الموتى؟ أم عليه أن يوقظ الموت؟ ولا شك أنه اختار السير في طريق معرفة الحقيقة.

الشارع

الشارع هو المكان الذي يلتقي فيه جميع الناس وفي كل الاوقات ومن مختلف الخلفيات الاجتماعية فهو "أهمّ معرض لشبكة العلاقات والوظائف التي تنبني عليها ثنائيّة الأنا والآخر التي تمثل العمود الفقريّ للمعيش اليوميّ". (عبد الصمد. ص ٩١)

كما إن هناك علاقة بين الإنسان والأشياء في الشارع: المباني القديمة والجديدة، والمراكز والمركبات...

فكيف هو شارع القرية، وما هي التغييرات التي أصابته على مر السنيين؟

يمشي اللقلق وحيدا في شارع القرية الرئيسي، والذي أطلق عليه اسم "الشانزليزه"، يقول الراوي العارف إن كل شيء فيه اختلف، الليل والمعالم، وولدت فيه دكاكين كثيرة، ومحل بلياردو، ومقاهي الإنترنت، نمت كالفطر على جانبيه، ":بدل أشجار التين الضخمة، وحدائق الرمان، وأحواش الصبار. جيل جديد لا يعرفه اللقلق، جيل اكتسب انتباها مختلفا في هذه الأيام، بعد ثورات قادها من حيث لا يحتسب أحد". (ص ١٠٤)

لا يشعر اللقلق بالحسد والامتعاض، فابنته تنتمي لهذا الجيل، "يلاحظها تنتقل بسرعة مذهلة بين صفحات "الربيع العربي"...لكن الابنة لا مكان لها في شانزليه القرية بعد. ثابت الشارع الوحيد". (ص١٠٤)

فالإبنة التي ولدت في عمان، لا تملك وثائق تؤهلها لدخول فلسطين، وكانت مشكلة اللقلق الكبرى في حياته، هي زواجه من أحدى قريباته في عمان، ثم فشله في جلبها إلى فلسطين عبر ما يسمى "لم الشمل"، ومن ثم يؤدي الأمر إلى خلعه بسبب عدم قدرة اللقلق على ترك فلسطين، والاستقرر في أي مكان غيرها. لذا نمت وكبرت الإبنة وهي تحمل الأب مسؤولية ما جرى ويجري لها، قبل أن ينجح اللقلق في تبربر كل ما حدث. ويجدا حلا مبدعا لتبادل العواطف والمشاعر.

يتذكر اللقلق يوم ولد الشارع من جديد، عندما أضيء بالكهرباء، ويوم منح تميم الشارع اسمه في

أواخر السبعينات من باب السخرية.

والشارع يحمل أيضا الذكريات القبيحة، فاللقلق لا يمر بالشارع إلا ويلاحظ ثقل وجود تميم في ذاكرته، ويتذكر أيضا "ضابط مخابرات الاحتلال في المنطقة، أو "الكابتن" كما يرغم الناس على مناداته". (ص١٠٤)

وعند ساحة القرية الملاصقة لبيت الجد، تلتقي الأحواش الصغيرة الفرعية مع الشانزليه لتشكل جميعا ساحة تفتح فضاء جماعيا للناس.

"سيمشي اللقلق في الشانزليزيه نهارا، وسينتبه لحجارة مهدها العجائز على فلقتي الرصيف كمحطات استراحة قصيرة، وأشجار يسحب ظلها المشاة إلى أقصى الرصيف. وسيسحبه ظل صنوبرة خضراء خضراء، لكنها شريرة، ليجلس في ظلها، صنوبرة ملاصقة للمقبرة تشرب نبيذ الميتين، كثيرا ما تخيل اللقلق الطفل أكوازها رؤوس عفاريت". (ص١١٢)

فالشارع مكان لكبار السن ليأخذوا استراحة، يجلسون ويتجاذبون أطراف الحديث، وأشجاره تخفف من وطأة أيام الصيف الحارة، وهو أيضا مكان يمكن أن يخاف منه الأطفال كما اللقلق الذي يتخيل الصنوبرة الملاصقة للمقبرة أشباحاً تطارده.

تظلل الصنوبرة سورا يفصل ما بين المقبرة والشارع، يركب اللقلق السور، "يدلّي قدما من جهة الموتى وأخرى من جهة الشارع، يتوسطهما "ذكر" يعوزه مرهم كل ليلة". (ص١١٢)

يمرجح اللقلق قدميه بين شقي الحياة والموت. فالشارع برغم ما فيه من قلق وصراعات يبقى رمزاً للحياة مقابل المقبرة الملاصقة له.

الجسر...

طريق الفلسطينيين الوحيد في الضفة الغربية إلى الفضاء اللامحدود

أول ذكر لهذا المكان البغيض على قلوب الفلسطينيين، بالرغم من كونه الطريق اليتيم لسكان الضفة الغربية، كان في الصفحة ثلاثين، في تداعيات أفكار اللقلق حول والده، الذي كان يعمل حجارا في معان في الأردن، يسافر مع بعض رجال القرية لبضعة أشهر ويعودون محملين بالهدايا، وأموال أردنية تحرك اقتصاد القرية البائس. وفي العام الذي انهى فيه اللقلق الثانوية العامة، أحرق ملثمون حافلة إسرائيلية تقل عمالا، ففرضت إدارة الاحتلال عقابا جماعيا على القرية، تمثل بمنع جميع سكان القرية من السفر، إلا عدداً محدوداً من أصحاب المقدرة المالية، إذ استطاعوا السفر واجتياز الجسر بعد أن رشوا جواسيس كباراً والذين بدورهم رشوا ضباط الاحتلال، ووالد اللقلق لم يكن

يملك مالا، لذا لم يستطع المرور.

لعب هذا المكان دورا مشؤوما في حياة اللقلق، فبعد أن خسر والده فرصة العمل في الأردن، ازدادت أوضاعهم الاقتصادية سوءا، ولم يستطع اللقلق إكمال دراسته الجامعية، كما تسبب إغلاق الجسر أمام وجه والده، في تعرضه لحوادث مهينة إذ لم يستطع إقناع أرباب العمل اليهود بالعمل عندهم ربما لكبر سنه، رغم أن حفار القبور اليهودي جاء القرية يطلب عمالا بأجور قليلة وغير محمية.

في أول سفر له خارج فلسطين، مع بداية ما يسمى عملية السلام، لم ينتظر اللقلق العملية بل دفع رشوة لمحام مشبوه، الذي رشا بدوره مسؤولا في إدارة الاحتلال من أجل إلغاء منع السفر الذي كان يقف في وجه اللقلق، ولم يعرف قط السبب في منعه هذا.

ويتابع الجسر نهش جسد اللقلق، فبعد أن يتزوج ابنة عمته، ويخفق في جلبها إلى فلسطين، يطالبه والدها بتطليقها، لأنه عرف إنها "ستظل بلا زوج وبلا أسرة وبلا معيل إن حدث له شيء". (ص٦٩)، يرفض اللقلق ، فيقوم والد زوجته بالضغط عليها لتخلعه بقرار محكمة، بسبب تغيب الزوج عن زوجته لأكثر من سنتين. ويتم الطلاق ويزوجها والدها من قريب له.

لذا كبرت ابنة اللقلق، والتحقت بالجامعة، ولا زال الحال عالقا باللقلق، الذي احتج على الأمر بطريقة غريبة، فقد اضرب عن الزواج، واعتزل الجنس نهائيا.

عاش اللقلق في مأساة، "وتفاقم عنده تتبع الانقسامات والفواصل والعوازل". (ص٧٠) ولم يحميه من الانهيار التام، سوى ابنته التي جعلت حياته أمراً ممكنا، ابتاع لها شقة على أمل أن تعود إلى وطن لم تره، ووفر بعض المال لها لحاجات تعليمها، ولم يبخل عليها في أي شيء تحتاجه. وفي كلمات عميقة، تتسبب في قشعريرة لدى القارىء، يعبر الراوي عن عواطف ومشاعر اللقلق تجاه ابنته، يقول:

"في شقته - شقتها، مكتبة مليئة بالتصاوير، وخزانة ملابس لها، فيها ثياب أحبها جدا فاشترى منها نسختين، واحدة أرسلها لها، فيما أبقى الثانية على مرأى منه، يراقب مقاساتها وكأنها تكبر أمام عينيه". (ص٧٠)

سيحاول اللقلق الكثير من المرات عبور الجسر، وفي كل مرة يقال له عليك مراجعة المخابرات أو عد إلى حيث أتيت.

يعيش اللقلق مع آلام ابنته مع كل دّقة من دقات قلبها، فهي عاشت مع رجل آخر كبديل عنه، ويا

له من أمر مهول، ولكن لم يكن لديه خيارات أخرى عادلة. لقد أتيحت له فرصة السفر من قبل الاحتلال ولكن بشرط أن يوقع تعهداً بأن لا يعود إلى فلسطين، حدّق في السياج المحاذي للنهر الذي يقسم قلبه إلى ضفتين، وركز كي لا يلتبس عليه الأمر، ودله قلبه على القرار الصواب.

ولكن هذا الجسر اللعين، ستكون له قصص تروى، ففي سفرة اللقلق الوحيدة إلى عمان تعرف على سائق غريب، ويملك أفكارا مدهشة، أوصله إلى الجسر باتجاه فلسطين، ورفض أن يأخذ إلا سعر التكلفة أي أقل من السائقين الآخرين، وعندما سأله اللقلق لماذا؟ أجاب: إنه لاجىء ولد بعد النكبة، التي بدورها ولدت فيه، وإنه ما أن بلغ الثالثة عشرة سنة، حتى شرع يتسلل إلى النهر ويجتازه رغم الأسلاك الشائكة والألغام، وقام بالأمر عدة مرات، وكاد أن يقتل أكثر من مرة، وفي كل مرة مسك بها كان الصليب الأحمر يتكفل بإعادته لصغر سنه.

فما كان من والده إلا أن ذهب به إلى مكتب منظمة التحرير، وقال لهم: "هذا ميت ميت بكل الاحوال، خذوه فعلى الأقل ربما يموت مقاتلاً". (ص٧٥)

التحق بمكتب تدريب الأشبال، وأصبح أصغر فدائي في العالم، وتناول الإعلام قصته، وأطلق عليه لقب "عوج بن عناق". وكانت معلومة جديدة عرفها اللقلق، إن عناق بن عوج هو قصة عملاق فلسطيني أسطوري، "يقف عندما يجوع وسط البحر، يتناول حوتا من قاعه، ويرفعه بيده، يشويه على لهب الشمس، ويبتلعه دفعة واحدة". (ص٧٥)

اعجبت قصته اللقلق، فطلب رقم هاتفه، ليأتي ويأخذه من الجسر عند زيارته لعمان، وكشف عناق بن عوج للقلق أنه لم يقلّ في حياته أي راكب مغادر، لذا دائما يعود فارغا إلى عمان. وإنه يرحب بإيصاله إلى الجسر بأي وقت، ولكن ليس في الاتجاه المعاكس.

بعد فترة ليست بالقصيرة يفاجىء اللقلق بابنته تُنزل على موقعها على الفيس بوك مجموعة صور لعوج بن عناق في سيارته، وصورا لها تضمه، وأخرى على الجسر. فهي من مواليد عمان لذا وصلت إليه مصادفة، طلبت منه أن يوصلها الجسر، لم يأخذ إلا سعر التكلفة، وعاد فارغا كعادته.

في نهاية الرواية، يخرج الكاتب اللقلق من مآزقه وصراعاته من خلال ابنته، الجيل الجديد الذي وإن أخذته التكنولوجيا والحياة العصرية إلّا أنه ما زال لا يعرف غير فلسطين موطنا، رغم أنه لم يرها أبدا...تقول الابنة: إنها ستأتي بين الفترة والأخرى إلى الجسر، ولن تأتي إلا مع عناق. هنا ينط الفرح من قلب الأب، ويقول لها: "فقط أخبريني...سأذهب إلى الجسر من الجهة المقابلة، وكأنني غير ممنوع من السفر". (ص١١٨)

إذن وجد اللقلق وابنته نقطة لقاء بينهما، وهما بذلك يمارسان مقاومة من نوع آخر، ستجبر

الاحتلال على فعل شيء، كرفض عبور اللقلق إلى الضفة الأخرى، حيث قطعة من قلبه، تنتظر بشوق عارم لحظة الالتحام. ويتساءل اللقلق عن وضعه اللامعقول، وينفث حرارة الشوق والرفض: "ما الذي يمكن أن تقوله للوح زجاج يمنعك من السفر!". (ص٧١)

وتدلل أحداث الرواية، إن الإجابة هي البقاء على أرض الوطن رغم كل شيء، البقاء هي الكلمة السحرية التي تنغص حياة المحتلين.

خاتمة

إن الاهتمام بالمكان بدأ نتيجة النهوض الفكري والاجتماعي، ونتيجة محاولات الاحتلال طمس الأماكن والأسماء العربية الفلسطينية.

"فأصبح الإحساس بالمواطنة متأت من الإحساس بالتاريخ، وبالمجتمع وبالعائلة. وقد أُلبس ذلك كله لبوسا اجتماعيا تغيريا". (ياسين النصير. الرواية والمكان. دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع. ط٢. ٢٠٠٨م. ص ١٢)

لقد استطاع أكرم مسلّم أن يزود المكان بالروح الحية المليئة بالحركة، مما جعل منه مكانا ليس محليا وحسب.

فالأمكنة في الرواية تختزن التاريخ، ويحدس الروائي إن هناك جديدا في الانتظار. وكأن للتغيرات في الأمكنة في الرواية دورا في تغيير حياة الشخوص وأسلوبهم وسلوكياتهم في الحياة، وفي ملاحقة أحلامهم صعبة التحقق رغم بساطتها.

يقول الناقد وليد أبو بكر، إن كتّاب الرواية الفلسطينية، وذكر مسلّم كمثال، يخلقون تجاوزا ظواهر كتابية تمثل الوجه الجميل والعذب للأدب الفلسطيني، الذي لا يهمه التباهي والاستعراض، لأنه يفعل. فهم "لا يخترعون مكانا، ولا يستبدلونه، لأنهم يعيشون المكان في المكان، فلا يكون مجرّد حلم، أو اجترارا لذكرى، كما صوره أدباء الشتات، وبعضهم أحسن التصوير. إنه ملموس، فيه تراب وفيه عرق، وفيه دماء كثيرة، وفيه فوق كل ذلك آلام كثيرة، لا تسمح للصدق الفني بأن يظلّ عاطلا". (وليد أبو بكر. جريدة الأيام. زاوية دفاتر الأيام. "أخوات العيسة". ٢-٥-٢٠١٥)

وهذه الحداثة ظاهرة موجودة، وهي " مثلا قائمة في روايات ثلاث لأكرم مسلّم، الذي يختصر الوطن المحاصر داخل موقف واحد لسيارة، في موقف عام، في روايته الأخيرة سيرة العقرب الذي يتصبب عرقا". (أبو بكر. المرجع السابق)

فالمكان في حياة الفلسطيني وإن تغير إلا أنه ليس بقعة جغرافية وحسب، يعيش عليها ويستقر فوقها، "وإنّما هو جزء من جسد كلّ فلسطينيّ. هو جزء من لحمه ودمه وشراينه أو هو بعض من جملة من الوظائف المركّبة للجسم. إنّ المكان ليتربّع، وفقا لهذا التصوّر، في صميم الذّات على أنّه أحد مركّباتها. فهو يداخلها ويمازجها. ويعني بعض ما تعنيه. وإن قبلت إقتطاعه منها فمكرهة، مرغمة. لأنها تدرك أنّها بدونه كيان مشوّه مختلّ ومن الطّبيعيّ أن تتوق إلى استرجاعه. فبه تكتمل من جديد. وتستعيد أهمّ طاقاتها ووظائفها وكلّ صحّتها وجمالها". (عبد الصمد. مرجع سابق. ص٢٦٠)

والفلسطيني متعلق بأرضه، ومفتون بها، بل هو مسحور لا يعرف لها بديلا لذا نراه يتخلى عن كل شيء ليبقى على أرضه. فالأرض غاية في ذاتها ولا شيء يغني عنها.

يقول أنطوان كومبانيون استاذ الأدب الفرنسي في جامعة السوربون في مقالة له:"أن القلق ملازم للقراءة، عكس ما يدعيه علماء التربية الذين يدافعون عن القراءة وينوهون باللذة يقول: "فهناك لذة الاستغراق في عالم الرواية، ولذة ملامسة لغة الشعر، كما توجد لذة فهم الذات والوجود، لكنها ليست غير مؤذية تماما". (لحسن بوتكلاي. تدريس النص الأدبي من البنية إلى التفاعل. الدار البيضاء: منشورات أفريقيا الشرق. ط١. ٢٠١١م. ص ١١)

ويضيف إنه بعد رصد علاقة كتاب وشخصيات بالقراءة توصل إن للقراءة لذة، ولكنها لذة مؤلمة ومتعبة، وميز بين نوعين من الكتب: الكتب التي تقرأ بسهولة ويسر، ولذتها لا تدوم، فهي لا تستحق القراءة. وكتب تجهد القارىء وتتعبه، وتقوم بتغيير رؤاه وتقلب أسسه، وتبدل أذواقه.

وتلك الكتب هي روايات أكرم مسلّم، فأنا أشهد إني استمتعت وتعبت وتأذيت، وإن الرواية قد بدلت مزاجي وقلبت أفكاري وغيرت نظرتي للأشياء والأماكن.